جدلية التعدد اللغوي في الجزائر بين الرهان التنموي والتبعية الثقافية

The dialectic of multilingualism between development wager and cultural dependency

أ.د/ بوجمعة كوسة

جامعة سطيف2، Omhan1@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/10/18 تاريخ القبول: 2022/12/27 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

تعتبر اللغة من المكتسبات التي تعطي لأي مجتمع من المجتمعات هويته وانتمائه الحضاري والديني. وانتقلت اللغة العربية إلى بلاد المغرب بفضل الدين الإسلامي الذي كرس بناء هوية المجتمع الجزائري، وصنع أمة بلغة عريقة وبلسان عربي، وخلّدها عبر التاريخ لتضل العديد من العادات والتقاليد والطقوس الدينية، والرموز والكثير من مركبات الهوية العربية والإسلامية مرتبطة باللغة العربية والدين الإسلامي بامتياز. إلا أن الاحتلال الفرنسي وطيلة أكثر من قرن استطاع خلق الكثير من التشوهات التي شابت المقوم اللغوي مستعينا في ذلك بفئة معينة من أبناء المجتمع الجزائري، حرص على تشبيعها بالثقافة الفرنسية بشكل جعل من هذه الفئة طوع إشارة المحتل الفرنسي، حيث خاضت من بعد دحر فرنسا مسؤولية الإبقاء على اللغة الفرنسية والتصدي لكل محاولات التعريب، وهو ما نلمسه في ازدواجية اللغة من خلال التعاملات والمراسلات الرسمية وغير الرسمية. ومن خلال ما سبق يستهدف هذا المقال من خلال التحليل والمناقشة تبيان تمظهرات الصراع اللغوي بالمجتمع الجزائري وبعض آثاره على الحياة الاجتماعية والهوياتية.

كلمات مفتاحية: الجزائر؛ التعدد اللغوي؛ الهوية؛ الثقافة؛ التنمية.

Abstract:

Language is one of the gains that give any society its identity and its cultural and religious affiliation. The Arabic language transferred to Algeria through the Islamic religion which enshrined the identity of society. However, french colonialism for more than a century, created many distortions that marred the linguistic ingredient aided by a certain category of the Algerian society, faugh after defeating France the responsibility to maintain the French language and addressing all arabization attempts. This made the Algerian administration and the language of the official's speech dependent on the French language, and the rest of the

community speaks Arabic, Berber, and some French, which threatens Algerian national identity. This is what we will highlight in this article.

Keywords: Algeria; multilingualism; identity; culture; development.

* **المؤلف المرسل**: أ.د/ بوجمعة كوسة، **الإيميل**: Omhan1@hotmail.com

1. مقدمة:

تعتبر اللغة من بين المكتسبات التي تعطي لأي مجتمع من المجتمعات هويته ولأي منطقة من المناطق انتمائها. هذه اللغة هي نتاج عملية تعلم وإبداع نابع من تجارب فئات المجتمع واحتكاكهم وتواصلهم مع بعضهم البعض، واتصالهم واحتكاكهم بمجتمعات أخرى عن طريق التعارف والتسالم أو عن طريق الحروب والعداوة.

ورغم التطور العلمي والتكنولوجي الهائل الحاصل في مجال المعرفة، إلا أن العديد من المجتمعات تسعى جاهدة لمواكبة هذا التطور العلمي بتطوير لغتها وجعلها لغة حية تستجيب لحاجات العلم والمعرفة، بل وتفتخر بذلك وتتنافس عليه. وعلى خلاف ذلك نجد مجتمعات أخرى تخلت عن لغتها ولجأت إلى لغات تعبر عن هوية وتراث مجتمعات أخرى، وهو ما أفقدها هويتها وتراثها بشكل سريع وسريع جدا، أدى إلى زوال الشعور بالانتماء، وولد تيهانا فرضه التشرب بثقافة مجتمعات غربية. إشكال مجسد في دول تابعة للمحور الفرنكوفوني، ودولا تتبع المحور الإنجلوسكسوني، بمعنى التبعية اللغوية، التي توجه البناء الاقتصادي والاجتماعي.

لقد دار وما يزال يدور، نقاش واسع في أدبيات العلوم الاجتماعية حول كون اللغة مكونا رئيسيا للهوية الوطنية، لكن يكاد يجمع أيضا على كونها المكون الرئيسي لهوية أخرى هي الهوية الثقافية أو الحضارية، لأن اللغة ثقافة وحضارة وليس فقط أداة للتواصل: إنها ليست مجرد أداة للفكر، بل هي الفكر ذاته. وهي مرشحة بالتالي لأن تشكل أحد أهم الهويات للفرد المعاصر المتعدد الهويات بهوية رئيسية وأخرى فرعية، أو ثانوية.

وإذا كانت دولا كثيرة قد انسلخت عن لغتها الأصلية، وتبنت لغات مجتمعات أخرى بحكم ما تعرضت له من استعمار في وقت بعيد مثل دول أمريكا اللاتينية التي تتحدث اللغة البرتغالية واللغة الاسبانية، أو كدول افريقية مثل مالي وتشاد والكاميرون وغانا ... التي تتحدث اللغة الفرنسية أو الإنجليزية وحتى البرتغالية، فإن تلك الدول لا تزال تكتسب من مقومات الهوية عدا اللغة كالتقاليد والأعراف واللباس والطقوس، ما يجسد ويظهر انتمائها الاجتماعي والحضاري.

هذا ما سنتناوله في هذه الورقة العلمية، مركزين على لغة الخطاب الرسمي، ولغة الخطاب التجاري، ولغة الخطاب الشعبوي، والتناقضات التي تحملها هذه الخطابات في ضرب وتفتيت الهوية الوطنية، كما نتناول أهم الأسباب التاريخية والسوسيولوجية والبسيكولوجية والاقتصادية التي ساهمت في هذا التفتيت والانقسام.

فلو تكلمت في بلدك في منطقة بعيدة عن موطنك الأصلي، فيكفي أن تتحدث أم شخص أو مجموعة حتى يُدرك أنه لست من منطقتهم وبالاستطاعة تحديد هويتك الجغرافية بسهولة تبعا لمخرجات حروف اللغة والنطق والصوت الذي يصدر عنك، وكذلك الحال إذا كنت في غير بلدك، كأن تكون في بلد عربي، فاللغة عربية لكن لهجات النطق تختلف من منطقة لأخرى، ويكون الأمر أكثر وضوحا إذا تحدث الشخص في بلد غير عربي، فهنا ليس اللغة فقط من تحدد هوية الشخص، بل أيضا صورة الشخص بما تحمله من خصائص فيزيولوجية تميز هويته عن هوية الآخرين.

ومما سبق عرضه، يتضح أن الهوية تعبر عن انتماء جماعي وليس فردي، بل تعبر عن خصائص جغرافية وفيزيولوجية وسلوكية مشتركة، ولكل مجتمع هوية تميزه عن الآخرين، هذه الهوية تصنعها اللغة، الجغرافيا، الدين، السلوكات .... والتي يؤكد من خلالها المختصون أنها أساس كل نهضة وكل تنمية، فهل ساهمت ازدواجية اللغة في الجزائر في تعثر عجلة التنمية، أم أن التبعية الثقافية هي التي تدفع بتبني اللغة الفرنسية دون اللغة الانجليزية؟

2. اللغــة:

1.2. تاريخ اللغة العربية (أهمية اللغة العربية):

إذا أردنا التكلم عن أمة ما، عن تاريخ ما، وعن حضــارة ما لابد من ذكر عاملها ومقومها الأســاســي وهو"اللغة ولسان القوم" ففيها يظهر المخزون الثقافي والقيمي والأبعاد الحضارية لها لذلك فاللغة ركيزة الأمم وسبيل نهضتها ورقيها.

واللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، لغة التاريخ ولغة الأصـــالة ورابط متين بتاريخ مجيد لأمة عظيمة إسمها"أمة الإسلام".

ولقد كانت اللغة العربية الفصيحة منذ أن ارتقت من وضعها كلهجة لنجد أو لقريش قد أثبتت فاعليتها الوظيفية عبر التاريخ باعتبارها لغة اتصــال وتواصــل بين الشــعوب العربية وغيرها من الشــعوب، وهي لغة إيصــال المعرفة والحضــارة الإســلامية، ولم يبدأ الشــعور بالتهديد عند المتحدثين بها إلا عندما ضــعفت الأمة ســـيـــاســـيـــا ودخلـت لغـات القوات الأجنبيـة مثـل الإنجليزيـة و الفرنســـيـــة و التركيـة لتفرض هيمنتها.(**الفهري، 2003،ص26**)

2.2. صــراع اللغــات:

قد يحدث وأن تتحول اللغات في وضــع اتصــال إلى لغات في وضــع صــراع هيمني، هذا الصــراع الذي يترجم صراع قوة؛ فاللغة القوية أو المهيمنة تُفرض بقوة المتحدثين بها كالإنجليزية اليوم باعتبارها اللغة المهيمنة عالميا في الدائرة الأولى لتأتي اللغات الأخرى في الدائرة الثانية تتصارع وتقاوم من أجل منافسة اللغة الأولى. وإذا كان استعمال اللغة الإنجليزية مسموحا به في ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا ومعمما في هيئات الإتحاد الأوروبي فإن ذلك لا يمنع اللغات الرسمية لهذه البلدان من أن تستمر في لعب دورها بالكامل رغم أن سيطرة الإنجليزية فعلية في قطاعات المعلومات والاقتصاد.

كما أن هذا الصراع اللغوي لم يقتصر على اللغات الهامة بين الأمم، إنما قد كان كذلك في اللغة الواحدة ذلك أن اللغة التي تعيش الصراع أو تعجز عن التطور بفقدانها القدرة على المسايرة كثيرا ما تختفي ولا يبقى سوى ما تخلفه من تاريخها.(**الفهري، 2003،صص95-69**)

3.2. واقع اللغة العربية بالجزائر ومسألة التعريب:

بالرغم من كون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد –استنادا إلى الدستور– فإن هناك – على ما يبدو– إقرارا فعليا بثنائية لغوية وظيفية إن لم نقل بأحادية لغوية تظهر في سيطرة – ليست بالبسيطة– للغة أجنبية تسمى "الفرنسية" تظهر سواء في الخطابات الرسمية أو النصوص والمراسلات الرسمية؛ فلو تأملنا في معاملاتنا الإدارية لوجدنا " اللغة الفرنسة " سائدة رغم الإقرار بأن العربية هي اللغة الوحيدة والرسمية وأن استخدامها أمر ضروري وإجباري خاصة في المجالات الرسمية إلا أن ما يُلاحظ في الواقع عكس ذلك تماما؛ إذ تجد من يفضل استعمال مستويات لغوية أخرى كالتداخل بين العربية العامية ولغة أجنبية، أو استعمال لغة أجنبية مباشرة بحجة ضعفه في لغته الوطنية، أما على مستوى المؤسسات الرسمية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية فالملاحظ أن اللغة السائدة هي "اللغة الفرنسية" والتي تعتبر في نظرهم لغة الحداثة والحضارة، وينظر بعضهم إلى "اللغة العربية" على أنها وسيلة غير قابلة لمسايرة التطور، ولو ألقينا نظرة على منتجنا الثقافي لوجدنا الكثير منه بهذه اللغة الأجنبية أيضا، بل حتى لساننا اليومي طغت عليه هذه اللغة الدخيلة على اللغة المحلية باستعمال الكثير من المفردات الفرنسية في حواراتنا اليومية، ولا يمكن هنا إغفال دور الاستعمار الفرنسي في محاربته تعليم اللغة العربية في الجزائر طيلة 132 سنة من الاحتلال و الهيمنة.(**صحراوي،2009،ص114**)

ورغم وجود الكثير ممن أسهموا في إرساء دعائم اللغة العربية في الجزائر بعد الاستقلال إلا أن هذه اللغة لا يزال ينقصها الكثير في سبيل إزاحة اللسان الفرنسي رغم أن المهمة ليست بالسهلة على الإطلاق؛ فإعادة الاعتبار للغة العربية إنما يكون بوعي لا متناهي لضرورتها وحتميتها اتجاه واقعنا وكينونتنا، ولو تم إغفالها أكثر سنفقد بوصلتنا الحقيقية باعتبار "اللغة العربية" هي الرابط المتين لانتمائنا الوطني، الحضاري والإسلامي، والاهتمام بها والحرص على تنميتها وجعلها لغة علم وعمل إنما هو حرص على تماسك المجتمع الجزائري في هويته وأصالته.(طبش،2014،الفقرة3)

وفي ظل ما يشهده العالم من عولمة المعلومات وتدويل الاقتصاد والانتشار الهائل للتكنولوجيا أضحت مسألة "التعريب" مسألة أكثر من ضرورية؛ إذ تشكل عملية تعميم استعمال اللغة الوطنية في الجزائر أهمية

بالغة في حياة الأمة الجزائرية وتطور مسيرتها التنموية منذ الاستقلال حتى الآن، فاستعمال "اللغة العربية" أصبح اليوم أمرا ملحا واختيارا وطنيا لا يقبل أنصاف الحلول، وضرورة شعبية وقضية أساسية وجزء لا يتجزأ من الاختيارات الوطنية الأساسية وقد أكد ذلك الميثاق الوطني بقوله أن الخيار بين اللغة الوطنية ولغة أجنبية أخرى أمر غير وارد ولا رجعة في ذلك، وما جاء على لسان الرئيس الراحل **هواري بومدين**: "لا مجال للمقارنة أو المفاضلة بين اللغة العربية وأي لغة أجنبية أخرى فرنسية أو إنجليزية لأن الفرنسية كانت وستبقى مثلما بقيت في ظل الاستعمار لغة أجنبية لا لغة الجماهير الشعبية" وقد بين الميثاق من خلال ذلك معالم الطريق معتبرا "التعريب" ذا صلة وثيقة بالهوية الوطنية الجزائرية وعاملا موحدا لأفراد الشعب بمختلف فئاته ومشاربه السياسية مؤكدا على أن استعمال العربية وتعميمها أصبح أمرا مرتبطا بالحياة اليومية للفرد الجزائري بحيث تكون لغة البيت والمدرسة والشارع والإدارة مع أهمية تطويرها حتى تصاحب العصر وتستوعب المستحدثات العلمية وتواجه العولمة اللغوية (**amani ,2014**)

فالتعريب في الجزائر هو أولا خدمة للغة العربية من الداخل (على مستوى نسقها وعلى مستوى إنتاج الأدوات التي تمكن من تنميتها ونشرها) وأيضا إعادة للنظر في وضعها في المحيط إزاء اللغات واللهجات الأخرى في إطار ما يفرضه التعدد اللغوي والتعدد اللهجي؛ فبرنامج التعريب يظل واردا أكثر من أي وقت مضى وهذا لا يعني التقوقع والانغلاق بل يعني التفتح على العلاقات واللغات الأجنبية والاتجاهات العلمية الحديثة بما لا ينفي الحاجة إلى أهمية التعدد اللغوي في ظل ما تفرضه العولمة من أهمية امتلاك أدوات التمكن من المعارف والمعلومات والدور الإيجابي للغات الأخرى؛ فإذا كان التعدد اللغوي مبدأ متداولا باعتباره رأس مال يمكّن من الاتصال والتفاعل، والتعدد اللهجي مشروعا لأنه يتيح التنوع فإن هذين المبدأين- التعدد والتنوع- ينبغي ألا ينقلبا إلى تمزق مجتمعي وانسلاخ عن اللغة الوطنية الأم، والمهم كذلك تثمين دور اللغة الوطنية الرسمية وإحلال اللغة العربية في تعاملاتنا اليومية والخطابات الرسمية خاصة محل اللغات الأجنبية. ومن هنا فالمجتمع الجزائري إذا استعمل لغته الوطنية الأم وعممها كما ينبغي؛ استطاع أن يحافظ على تراثه وهويته الثقافية والحضارية ويساير ركب التقدم والازدهار وما يتميز به من صراع ثقافي في الوقت الحالي.(**شتيح، 2011،ص506**)

3. مفهوم الهويــة:

تعتبر الهوية من المفاهيم المتداولة تداولا كبيرا وقد أصــبحت مفهوما يشــغل اهتمامات كثير من ميادين البحث مما زاد في صــعوبة تعقيده وعدم إمكانية تحديده، وهي مفهوم حديث لا يتجاوز نصــف قرن من الزمن تقريبا، ويمكن تعريف الهوية الوطنية على أنها مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العامة المشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الأمة.(**مسلم،2009،ص85**)

4. علاقة اللغة بالهوية الوطنية:

تعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية وعنصرا أساسيا هاما ومسهما في الحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع؛ إذ تكتســب أهمية بالغة بالنظر إلى طبيعة الوظائف التي تؤديها في ســياقها الاجتماعي والتاريخي والســياســي والثقافي واللغوي، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت رمزا للهوية الوطنية ووســيلة للإبداع الفكري ومطلبا نخبويا واجتماعيا يهدف إلى تأكيد الشـخصية الوطنية والوحدة اللغوية وليسـت مجرد أصوات لغوية تستعمل أداة للتواصل فحسب.

– من المعروف أنه لا يمكن تصور مجتمع متماسك ومنسجم دون لغة لهذا فقد أدرك الاستعمار الهدف من فرض لغته على المجتمع الجزائري وما سـينجر عنه من طمس لملامح ومعالم هويته المتميزة وكل مقوماتها، وقد كان المنظرون الاســتعماريون يؤكدون أن الإســلام واللغة العربية هما ركيزتا هذه الهوية فحاولوا أن يهدموا الركيزة الأولى عن طريق ما يسمى بـــ: "السياسة البربرية" وأن يهدموا الركيزة الثانية بإحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية.(**زيتوني،2013،ص511**)

ولما كانت اللغة العربية من أبرز مقومات الهوية الوطنية فإن المجتمع الجزائري بقي محافظا على هذه الهوية نتيجة تمسـكه بعروبته ولغته داعيا إلى اعتبارها لغة رسمية في المدارس والإدارة، فهي ليسـت وسـيلة للحفاظ على الشـخصـية وضـمانا لترابطها فحسـب بل أسـاس كل نهضـة وتطور مسـتقبلي ولذلك كانت هدفا استراتيجيا يلمسه بوضوح كل متتبع لمراحل السرد التاريخي للوضع اللغوي في الجزائر فقد كانت أداة تحصين وحفاظ على هوية المجتمع الجزائري وعاملا أساسيا جابه كل محاولات الهيمنة والذوبان التي حاول الاستعمار ممارستها فسعى إلى نشـر الفرنسـية كلغة تعليم دون اعتراف باللغة العربية وأصـبحت "اللغة الفرنسـية" هي

اللغة الرسمية المعتمدة في جميع مجالات العمل والتفكير والاتصال، ومن خلال تتبع هذه السياسة اللغوية العدائية تبين أن الهدف منها هو إضعاف للهوية الوطنية دون أن ينجحوا في ذلك، ويرى المجتمع الجزائري أن الرجوع إلى هويته لن يتم إلا من خلال الاستعمال الموسع للغة العربية وجعلها قادرة على تحقيق التواصل المعرفي والتصدي لأي محاولة لفرض هيمنة أي لغة أجنبية أو حتى وجود ازدواجية لغوية في تعامل الأفراد مع بعضهم البعض.(**شتيح،2011،ص511**)

فتعميم استعمال "اللغة العربية" استعمالا شاملا لا يمكن إلا أن يعزز من الانتماء إلى الهوية الجماعية للمجتمع الجزائري من خلال هيمنة "اللغة العربية" على كل الأصعدة: الاجتماعية، الثقافية والتعليمية وهي بالنسبة للمجتمع الجزائري عنصر أساسي في هويته وشخصيته ومن هنا نشأ ذلك التلازم المنطقي والتاريخي بين" اللغة العربية والهوية الوطنية" ومن الخطأ فصلهما عن بعضهما البعض، بل لابد من تضافر الجهود للعمل على إعطاء هذه اللغة مكانتها الفعلية وإرساء قواعدها باعتبارها لغة وطنية رسمية، وهذا الدفاع عن اللغة الوطنية إنما هو في الواقع دفاع عن الوجود الحضاري المتميز للهوية الوطنية فسيادة هذه الأمة من سيادة لغتها.(**صحراوي،2011،ص116**)

5. الطبقة البيروقراطية في الجزائر ودورها في تكريس هوية الغير:

من المعلوم أن رواسب الاستعمار الفرنسي في الجزائر لا تزال مفرزاتها تضرب في عدة مجالات ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية ...

لقد عمدت فرنسا الدولة الإمبريالية التي سيطرت على مناطق شاسعة من العالم إلى فرض استراتيجيتها الاستعمارية المبنية على السيطرة الفكرية إلى جانب السيطرة العسكرية والاقتصادية، لذا؛ عمدت على فرض لغتها على المناطق التي تسيطر عليها، من خلال سن قوانين تخص التدريس باللغة الفرنسية باعتبارها اللغة الأولى والرسمية التي ينبغي التعامل بها، في حين لم تلغي اللغات المحلية للمجتمعات التي تم السيطرة عليها، لكن كمجرد لهجات تتبع وتنصهر في اللغة الأم وهي اللغة الفرنسية.

وأمام فرض منطق الأمر الواقع، كان لزاما على المجتمعات التي تسيطر عليها فرنسا التعامل بلغتها في جميع الوثائق الإدارية والرسمية، كما استدعت المصلحة المتبادلة في الجزائر وجود فئات من أبناء المجتمع

الجزائري داخل الإدارة الفرنسية، ليس كمسؤولين، ولكن كموظفين عاديين أو كعمال عاديين، تتلمذوا ودرسوا في المدارس الفرنسية، فكانوا بمثابة الفرد العربي الذي يتحدث عن لسان فرنسا، ليس بمنطق توصيل المعلومة فحسب، بل بمنطق الشخص الذي تثق فيه فرنسا بحكم تشبعهم بالثقافة الفرنسية.

ولم يحض أبناء الشعب الجزائري بهذا الاهتمام على الإطلاق، لأن تجهيل الشعب الجزائري من الآليات التي كانت تعتمدها فرنسا، بل كانت فئة قليلة جدا من الجزائريين من تحضي برعاية فرنسا التعليمية والتثقيفية، غالبيتها ذات أصول يهودية، وأخرى من أبناء القياد الذين سخروا أنفسهم لخدمة الاستعمار الفرنسي.

إن هذه الطبقة المثقفة والمتشبعة بالهوية الفرنسية إلى جانب جزء من الهوية العربية بحكم الأصول العربية وبحكم التواجد الجغرافي في بلد عربي (غير معترف به) هي الطبقة التي أُطلق عليها اسم "الطبقة البرجوازية"، التي أصبحت بعد خروج المستعمر الفرنسي من الجزائر هي الطبقة الحاكمة بحكم أنها كانت موزعة على الكثير من الوظائف الإدارية في المؤسسات الإدارية الفرنسية، التي أصبحت فيما بعد مؤسسات جزائرية، أي بعد نيل السيادة.

إن التعداد البشري للكفاءات الجزائرية غداة الاستقلال لم تكن تؤهلها لا من حيث العدد ولا من حيث المستوى لتولي جميع المسؤوليات والوظائف الإدارية، الأمر الذي وضع السلطة الجزائرية أمام الأمر الواقع وهو الاستعانة بالكفاءات الجزائرية من الطبقة التي تكونت من قبل فرنسا وتشبعت بثقافتها –حتى أنها (الطبقة البرجوازية الجزائرية المفرنسة) لم تكن تنادي باستقلال الجزائر بقدر ما كانت تنادي بحكم ذاتي أو انصهار تام بين الجزائر وفرنسا– لتسيير شؤون المؤسسات الإدارية الجزائرية لما تملكه من خبرة ومن دراية بالشؤون الإدارية.

كما كان لاتفاقية " إيفيان" الدور البارز في وجود عدة كفاءات فرنسية تسهر على تسيير الكثير من شؤون الغدارة الجزائرية في مختلف المجالات حتى التربوية منها، الأمر الذي كرس استمرارية التعليم باللغة الفرنسية إلى غاية 1976 أين صدر أمر بضرورة تعريب المنظومة التربوية في الجزائر، هذه الأخيرة عرفت عدة انتكاسات بفعل عوامل الصراع الذي غذته تيارات نادت بالتعريب وتيارات فاعلة ونافذة عارضت

فكرة التعريب واستمرت في فرض منطق التعامل باللغة الفرنسية، وهو ما أحدث ارتجاجات عديدة في المنظومة التربوية انعكست بشكل مباشر على جودة المخرجات في شتى مراحله التكوينية. فلا الفرد الجزائري استفاد من تكوين مباشر وجيد باللغة الفرنسية، ولا هو استفاد من تكوين جيد باللغة الفرنسية، بل كان هناك مزيج تكويني أخلط وأساء إلى الكفاءات التي تولت مناصب مسؤولية، أو تنتظر تولي هذه المناصب بحكم أن الكثير من الطبقة البرجوازية عملت على استمرارية نفوذها في دواليب المؤسسات الجزائرية وهذا عن طريق توريث الأبناء بطرق عدة، الأمر الذي حافظ على استمرارية الصراع بين الطبقة البيروقراطية المفرنسة التي تتولى زمام الكثير من المؤسسات الجزائرية، وبين فئة تناضل من أجل تفعيل التعريب باعتباره مظهرا من مظاهر انتماء هذا المجتمع للوطن العربي.

6. نماذج من التعدد اللغوي في الجزائر:

نرصد ملامح الخطاب الرسمي للمسؤولين الجزائريين باللغة الفرنسية من خلال عدة محطات نوجزها فيما يلي:

أ- الخطاب السياسي الداخلي: إن اجتماع مجلس الوزراء في الجزائر الذي يجمع رئيس الجمهورية بالوزراء الذين يمثلون مختلف القطاعات يتم بالغة الفرنسية، فإن أخذ بعض الوزراء الكلمة باللغة العربية وضع البعض الآخر المترجم الآلي المباشر في أذنيه بحكم أنه لا يعرف اللغة العربية. كما نلمح ذلك من خلال الأخطاء الفادحة في حق لغة الضاد من قبل الوزراء الذين يعمدون دائما إلى استعمال اللغة الفرنسية.

ب- الخطاب السياسي الخارجي: فالكل يعرف ويعتقد ويجزم أن المجتمع الجزائري مجتمع مسلم وعربي، ويتحدث اللغة العربية، لذا لا عجب أن نجد حرص خارجيات الدول العظمى في انتقاء كفاءات متمكنة من اللغة العربية وإرسالها إلى هاته الدول، وحرص هؤلاء على التحدث بالعربية في الجزائر حتى وإن كانوا غير متمكنين بما فيه الكفاية، لكن يؤثرون الحديث بالعربية، لعوامل أخلاقية وقيمية تتمثل في احترام ثقافة وتراث الشعب الآخر.

وما يحز في النفوس أن مسؤولينا يتعمدون التحدث والخطاب باللغة الفرنسية، وكأنها لغة مفهومة أكثر من اللغة العربية غير المفهومة، وكأنها لغتهم، في حين يتنكرون للغة العربية وكأنهم ليسوا عرب، رغم أن ذلك

يسيء لتراثنا اللغوي وانتمائنا الحضاري. مقابل ذلك نجد الكثير من المسؤولين الغرب يلتزمون بالحديث بلغتهم حتى وإن كانت غير مصنفة ضمن العشر لغات الأولى في العالم ويفتخرون بذلك، معتقدين أن ذلك يمثل جزء من انتمائهم الحضاري.

ج- الخرجات الميدانية للمسؤولين الجزائريين: وسواء تعلق ذلك برئيس الجمهورية أو وزير مهما كان نوع القطاع الذي يشرف عليه، فمراسيم الزيارة أو اللوحات الخاصة بالشرح أو البيانات، أو حتى الشرح من قبل المسؤولين المحليين يتم باللغة الفرنسية، وهذا اعتقادا أن الطرف الأعلى سلما لا يعترف إلا باللغة الفرنسية، ومن هذا أصبح تولي المسؤوليات في المناصب العادية في الإدارات الجزائرية وليس العليا مرتبط بضرورة حيازته على قدرات لغوية باللغة الفرنسية وليس بلغة ثانية أخرى حتى وإن كانت الإنجليزية أو الأمازيغية...

د- المراسلات الرسمية: رغم القوانين التي تمت من قبل رئيس الجمهورية الداعية إلى ضرورة الالتزام بجعل المراسلات باللغة العربية، إلا أن المراسلات الإدارية لا تزال تسير بشكل شبه كامل باللغة الفرنسية، الأمر الذي جعل رئيس الوزراء الفرنسي للرئيس " **هولاند**" خلال زيارته للجزائر أواخر 2013 يفتخر بكون الجزائر هي البلد الثاني بعد فرنسا الذي يعمل على المحافظة على اللغة الفرنسية ويتعامل بها بشكل كبير. إن المراسلات الإدارية التي تتم غالبيتها بالغة الفرنسية ليست حكرا على الوزارات فقط، بل إن امتداد التعامل باللغة الفرنسية فيما يخص المراسلات امتد حتى الإدارات المحلية وللامركزية في شكل البلديات والمديريات وبين المصالح فيما بينها وبين المكاتب...

هـ- المراسلات غير الرسمية: وتتجلى هذه المراسلات بالغة الفرنسية التي تتعامل بها منظمات المجتمع المدني مع مختلف فعاليات المجتمع، ومع مؤسسات الدولة المختلفة، إذ تتضح هذه المراسلات غير الرسمية باللغة الفرنسية من خلال مراسلات المؤسسات الاقتصادية فيما بينها، وفيما بينها وبين المؤسسات الإدارية، وفيما بينها وبين المواطن. ولعل أبرز مثال على ذلك فواتير الهاتف والماء والكهرباء والغاز، وإن كان المواطن في هذه الحالة يعرف أن الأمر يتعلق بسداد مبلغ الفاتورة، فلا يهمه إلا القيمة المالية المبينة و المعني بتسديدها. أما الظاهرة الأكثر سلبية، والأكثر تعبيرا عن تناقض في لغة الاتصال؛ فحينما نتحدث عن مؤسسات متعاملي الهاتف النقال في الجزائر، فمراسلاتهم بالزبون التي عادة ما تكون في شكل رسائل sms – ل

30مليون مشـــترك (أفريل2014) – كانت ولا تزال باللغة الفرنســـية علما أن شـــريحة كبيرة من المجتمع الجزائري لا تحســـن القراءة والكتابة باللغة العربية، فما بالك باللغة الفرنســـية، وهذا ما يجعل موضـــوع المادة المرســـلة لا يصـــل إلى الزبون لتناقض لغة التواصـــل. ليبقى الهدف من التواصـــل بلغة لا يتكلمها المواطن والإصـــرار على توظيفها من قبل مدراء المؤســـســـات أمر يســـتحيل تحقيقه وفق مفارقة نادرة الحدوث إلا في بلدان تعرف تعداد كبير من الرعايا القاطنين على أرضها مثل "سنغفورة" أين تصل نسبة المهاجرين فيها إلى أكثر من 70% من مختلف الأعراق والجنســـيات، لهذا تتعامل هذه الدولة في تواصـــلها مع الجميع باللغة الإنجليزية كلغة عاملية بدل اللغة المحلية رغم استعمالاتها في عديد من المجالات. وهو الأمر الذي جعل هذه الدولة في مصاف الدول في مجال التنمية البشرية.

7. تحليل ثلاثية اللغة التراث والانتماء: إن المدة الطويلة التي مكثت فيها فرنسا في الجزائر، وعامل الهجرة أثرا في العديد من فئات المجتمع، خاصـــة في الطبقة المثقفة، مقابل فئات كثيرة أخرى لم تكن متعلمة بأي لغة، لكن تتواصـــل شـــفهيا بلغة الأرض والأجداد. بيد أن ذلك لم يحد من التأثير الكبير الذي تركته اللغة الفرنسية في صقل هوية الجزائريين، أو بالأحرى تشتيتها، فالمتعمق في الرصيد اللغوي الشعبوي يجد عديد من الكلمات الفرنسية مستعملة بشكل متجذر ويومي في خطاباتنا وأحاديثنا بشكل تلقائي، بل يستعصي على الكثير فهم وتفســـير معاني تلك الكلمات التي هي مزيج بين كلمات فرنســـية بكنة ولســـان عربي وأمازيغي وكيفية دمجها في لغتنا الخطابية (**أنظر الملحق رقم 01**)، وهذا ما يؤشـــر على التغلغل الذي أحدثته العوامل السابقة من استعمار وهجرة، وعامل التكوين والممارسة الإدارية، والممارسات الاتصالية كلها عوامل عملت على اســـتحالة وجود لحمة لغوية مشـــتركة، ولا نتحدث هنا عن تعدد اللهجات الجزائرية، لأن هذه اللهجات كانت موجودة قبل دخول فرنســـا، ولم تؤثر على تراثنا اللغوي. فالمتجول في المدن الصـــغرى أو الكبرى يقف على حقيقة اللافتات المكتوبة باللغة الفرنســـية، كما أن أسماء الشـــوارع وبعض المدن لا تزال مســـمياتها فرنســـية (**أنظر الملحق رقم 02**) وهنا اســـتحضـــر قول المفكر العربي ابن خلدون الذي يقول أن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وهو نفس الطرح الذي توصـــل إليه المفكر الجزائري

الآخر مالك ابن نبي من خلال فكرة القابلية للاستعمار، ربط ذلك بشخصية المجتمع التي يمكن أن تُفقد بفعل التنازل عن أهم مكوناتها وهي اللغة.

8. اتجاهات أفراد المجتمع الجزائري نحو أزمة الهوية:

يعتقد الكثيرون من أفراد المجتمع أن المجتمع الجزائري، دخل أزمة هوية حقيقية، فبمجرد أن ينزل جزائري على أرض بلد عربي سواء كان شقيق أو غير شقيق حتى يقف على هذه الحقيقة بجلاء كبير، مما يصعب عليه الاتصال بالآخرين التي يفترض أن يتحدث بها الطرفين، والصعوبة تكمن في قلة تحكمن في لغة الضاد، وهذا لا يعني أننا نتحكم في لغة أخرى، بل إن الحقيقة تعني أننا أصبحنا نتحدث الهجين اللغوي عديم الانتماء، فلا يمكن فهمك من قبل الغير، وإن تم ذلك فبصعوبة كبيرة، والأمر ينطبق حتى على الطبقة المثقفة، وكأن الأزمة مست جميع شرائح المجتمع الجزائري، مقابل ذلك يستطيع الجزائري فهم اللهجات التي تنتمي إلى اللغة العربية بسهولة تامة خاصة المصرية منها والسورية أيضا، وهذا بفعل الدور الإعلامي المركز خاصة تلك التي هي في شكل برامج تبث في شكل أفلام ومسلسلات، أين تشبعت كل فئات المجتمع الجزائري باللهجات المصرية والسورية في فترة تزيد عن عقد من الزمن (حوالي 30 سنة). في ظل عدم وجود بديل من الإنتاج المحلي.

ومن خلال مقابلة من عينة من الطلبة، اتضح وعيهم التام بمشكلة الهوية التي وقع فيها المجتمع الجزائري، لكن لا يتحسسون نتائجها، فلا ضير حسبهم أن يلعب أشخاصا في الفريق الوطني لكرة القدم يتكون من أفراد لا يربطهم أي انتماء بالجزائر، لا جغرافي ولا لغوي، وقد نتحدث عن الانتماء الديني، طالما أنهم يحققون انتصارات تحسب لهذا الشعب. فالكثير من أعضاء الفريق المحليين أبعدوا من الفريق بسبب عدم فهمهم اللغة الفرنسية، وبالتالي فإن الخطط لا يمكن استيعابها ولا تطبيقها من قبلهم، والعينة طويلة، تنم عن وجود تيار جارف نحو ثقافة مجتمع آخر، بل لغة مجتمع آخر لأن الثقافة الفرنسية تحمل الكثير من القيم التي يمكن من خلالها تحقيق من التقدم. لكن قشور لغة أو التشدق بلغة الغير دون فعالية تنظيمية وهيكلية في بناء مجتمع لا يعني إلا السير نحو الخلف. أو كما صار شائعا عن التنكيت بالجزائري الذي يقول تقدم إلى الخلف.avancer en arrière

9. خاتمة:

تم طرح عدة أفكار تخص إشكالية التعدد اللغوي عند الفرد الجزائري كمسؤول وكشخص عادي، باعتباره عنصرا فاعلا في هذا المجتمع يتأثر ويُؤثر، أين نالت اللغة الفرنسية حيزا كبيرا من لغة خطاب المسؤول الجزائري بينه وبين مرؤوسيه وبينه وبين العالم، الأمر الذي يبرز اندهاش هذا العالم الذي يجد نفسه حائرا هل المسؤول الجزائري مسؤول فرنسي أم عربي، يتساءل عن انتماءاته الحضارية، يتساءل عن هويته نحو شعب وأمة لها تاريخ عريق وله هوية مكتوبة على الورق وعلى الصخر، له لغة تستطيع أن تصمد إذا لقيت من يتحدثها ويطورها لتواكب لغة العلم، أما غير ذلك فالأصلح لنا نقتدي بالعديد من الأمم والدول التي نالت الاحترام من خلال الحفاظ على لغتها الأم وانطلقت بها نحو التنمية والعلوم من خلال الترجمة ومواكبة العلوم الحية، ناهيك عن عدم إغفالها تعليم النشء اللغة الانجليزية التي أصبحت اللغة العالمية رقم واحد بدون منازع، فاليابان والصين والعديد من الدول الآسيوية لا تزال محافظة على لغتها الأم، ومن خلالها استطاعت التكيف مع العلوم والتقدم الحاصل في مجال العلوم والتكنولوجيا، بل وأصبحت لاعب أساسي في هذا الدور، بخلاف الدول الفرنكفونية التي لا تزال تحت وطأة التخلف باعتمادها على لغة ميتة، فلا هي لحقت بها إلى مصاف التقدم والتنمية ولا هي حافظت على هويتها واستقلالها الثقافي.

10. المراجع:

1- عبد القادر الفاسي الفهري *(2003)، اللغة والبيئة*، منشورات الزمن، المغرب.

2- عز الدين صحراوي (2009)،" *اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية"*، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد الخامس،الجزائر.

3- أسامة طبش (2014) *واقع اللغة العربية في الجزائر وسبيل النهوض بها*،

يوم التحميل 17-04 - http://www. arabs .com /showthread.php22252 2014 على الساعة 10:30

يوم التحميل 17-04 -2014 على الساعة //:http amany. Ahlamontada.com - 11:00

4- شتيح بن يوسف (2011)،"*ثلاثية الدين، اللغة والثقافة ودورها في إرساء الهوية الوطنية"*، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 3، العدد05، جامعة الوادي، الجزائر، ص506.

5- محمد مسلم (2009)، *الهوية في مواجهة الإندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا*، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر.

6- نصيرة زيتوني (2013)، "*واقع اللغة العربية في الجزائر*"، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد27، العدد10، فلسطين.

الملحق رقم: (01)

المسبح الباسان	Piscine	/ العجلة رودا	roude		
الشارع رود	Route	/ سيارة طوموبيل	Automobile		
محرك موتور	Moteur	/ دراجة بيسكلات	Picyclette		
مرمدة سندرية	Sondrier	/ كهرباء ترسيتي	Electricité		
شرفة بالكو	Balcon	/ مستشفى سيبطار	Hopital		
ملف دوصي	Dossier	/ قلم ستيلو	Stylo		
أسبوع سمانة	Semaine	/ قطار تران	Train		

الملحق رقم: (02)

معظم الملحق مقتطع من مقال من جريدة الحياة الجزائرية، والتي جاء فيه:

" لازالت أغلب الشوارع بالعاصمة تعرف بأسماء هؤلاء الكولون الذين استباحوا أعراض ودماء الجزائريين كما هو الحال لتسمية الحي الشعبي "كافينياك"،و حي "ميسوني "يطلق على حي من الأحياء العريقة بالعاصمة و تجدر الإشارة الى أن هذا الاسم يعود الى أكبر سفاح كان يقوم بإعدام المجاهدين وقطع الرؤوس.

-"لافيجري" أطلق على أحد أكبر أحياء المحمدية التابعة للمقاطعة الإدارية للحراش بالعاصمة و تنسب هذه التسمية الى الجنرال "شارل لافيجري" رجل دين مسيحي فرنسي من كبار المبشرين بالجزائر إبان الثورة، و من أبرز المؤسسين لجمعية "الآباء البيض بالجزائر " والذي كان يسعى إلى القضاء على الدين الإسلامي من خلال التبشير للمسيحية.

-بولوغين: الاحتلال الفرنسي أطلق عليها تسمية "السان توجان"

-"جامعة الجزائر وسط" و المعروفة حاليا بجامعة "يوسف بن خدة" و التي انقسمت الى 03 أقسام و الغاء اسمها المتدوال عليها سابقا و استبدالها بأرقام رقم "1جامعة الجزائر وسط و رقم 2 جامعة بوزريعة فما هي تشبثت بأسماء مفرنسة و لا بأسماء تاريخية.

-سوق "كلوزال" تسمية هي الأخرى على غرار سابقتها تسيء لتاريخ الجزائر و تعود كلمة "كلوزال" الى جنرال فرنسي، سفاح تفنن في تعذيب الجزائريين، باستعماله لأتقن وسائل التعذيب.

-مستشفى "باريي" استجوبنا شاب في الثلاثينات عن " مستشفى نفيسة حمود" أجابنا" أنا نعرف سبيطار باريي و هو والوحيد هنا" هذا ما يوحي أن تداول أسماء مفرنسة للأماكن على ألسنة الجزائريين دليل قاطع أن المستعمر خلف تاريخ لم تستطع الجزائر محوه بالرغم من مرور 60 عام

-مستشفى "بلفور" للأطفال وهو الاسم المتداول بين العاصميين حاليا، حيث انتابنا حب الاطلاع من أجل فهم معاني هذه الأسماء أو مدلولاتها، لأنها من الوهلة الأولى تبدو أسماء غريبة وغير متعارف عليها، اللهم إلا على مستوى من يقطنون في تلك البلديات، ولربما وجد فيهم من لا يعلم عن سبب تسميتها بذلك الاسم شيئا.

-"مستشفى مايو" باب الوادي بأعالي العاصمة يعد المناضل "علي عبد الحميد" أول شخصية ثورية طالبت بتغيير اسم المستشفى من مستشفى "مايو" باب الوادي بالعاصمة إلى " محمد لمين دباغين"

-بيجو : تسمية أطلقت على أكبر ثانوية بالعاصمة واليوم تحمل اسم العلامة و المناضل "الأمير عبد القادر و غيرها من الأسماء التي ما تزال راسخة بمختلف المؤسسات و الهيئات دون حراك من طرف الجهات المسؤولة.

-محطة "فيكتور هيغو" : تسمية تعود لكاتب فرنسي، من المفروض أن تكون لمدلول تاريخي وطني، غير أن شهرة المحطة لم تتغير كون أن الكثير منهم لا يعرف التسميات الجديدة حيث باتوا ملزمين بالتسميات القديمة." كما توجد مسميات أخرى لمدن كبيرة لا تزال تنطق لدى بعض الناس بتسمياتها الفرنسية مثل دائرة العلمة بسطيف لا يزال البعض يطلق عليها" ساطارنو" والأصل يعود " سنت آرنو" وهي تسمية لمعمر فرن